الخصوصيات الثقافية دعم للغة العربية

الأستاذة: د.ملوكي جميلة :جامعة ابن خلدون تيارت

الأستاذة : أ. سعيدي منال وسام:جامعة تلمسان

ندرك من خلال هذا التطور المهول أن اللغة العربية أصبحت تعيش حالة من الانكماش والتراجع، فالمجتمعات المغاربية والشرقية باتت تفخر بحديثها الهجين الممزوج بمصطلحات إنجليزية أو فرنسية وحتي تركية عند بعض الدول .

كما أن التكنولوجيا المعاصرة تشكل تهديدا مباشر لحضور اللغة العربية في الميادين المعرفية، وذلك لانبهار العربي بهذه التكنولوجيات ومحاولة اكتسابها بأي وسيلة دون إدخال عليها تعديلات أو دون السعي لترجمة هذه التكنولوجيات.

من خلال هذا الرسم السريع للواقع المر الذي تعيشه اللغة العربية، نحاول أن نقدم نص للغة العربية من خلال النموذج الثقافي، هذا الأخير الذي يصعب تعريفة، إلا أنه أحد الركائز الأساسية التي يمكنها أن تعيد اللغة العربية إلى سالف عهدها، من خلال إحياء للخصوصيات الثقافية داخل الإثنيات البشرية العربية .

ان هذه الخصوصيات الثقافية هي المقوم الأساسي الذي حافظ على النوع العربي، ودفع به للاستمرار...فلم تكن اللغة العربية مجرد أداة للتواصل بين القبائل، بل كانت تمثل رابطة اثنية ومحورا ثقافيا يميز القبيلة عن الأخرى .

على هذا الأساس نطرح السؤال التالي :

هل الخصوصية الثقافية يمكنها أن تعيد للعربية مكانتها الاجتماعية؟

الخصوصية اللغوية

تشكل اللغة محور اهتمام كل العلماء، حسب اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم بدليل أننا لا نكاد نقف عند علم من العلوم الحديثة دون أن نلاحظ أنه اهتم باللغة التي تعتبر أكبر إشكالية عرفها التاريخ البشري فكل الحضارات البشرية وقفت تعالج إشكالية اللغة في دوائرها الجغرافية وخارج دوائرها. كأن اللغة هي المحور الأساسي في بناء الأفراد والجماعات وفي خلق الانسجام بين القبائل والمجتمعات فاللغة ليست أداة وحسب بل هي كيان اجتماعي وثقافي يؤسس لمجموعة من النظم، ومن خلالها تنظم حياته البشر، وفق معطى لغوي، يمز كل مجموعة عن الأخرى، بألفاظها، ومفرداتها، ومصطلحاتها، ونصوصها، وتراثها المكتوب والملفوظ إن اللغة كما يعرفها اهل الاختصاص "هي نظام من رموز ملفوظة بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة" [(1)] .

غياب اللغة في الأوساط الاجتماعية هو ضرب من الانتحار الاجتماعي الذي يترتب على أساسه الفساد الأخلاقي، والسفور، والانحطاط وغيرها من السمات والعلامات، الدالة على الانحطاط. فاللغة ليست "مجموعة من الرموز التي يستخدمها الفرد. لتوصيل ما يريده من معاني لغيره من الأفراد "[(2)]

إنها المؤشر الأساسي الذي من خلاله نستطيع أن نحكم على الشعوب بالتخلف أو التطور لأن وظيفة اللغة يستحيل أن تنحصر كما قال بن جني هي "اصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" [(3)].

بل هي " صورة السلوك الإنساني التي تنطوي على الاتصال الرمزي من خلال نسق النماذج المتفق عليها ثقافيا"4[(4)].

وهي في نفس الوقت "مجموعة اشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور"[(5)].

إن اللغة "وسيلة إنسانية لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية"[(6)].

من خلال هذا الرجوع إلى التعريفات المتناثرة للغة نلمس تلك الصعوبة في محاصرة هذا الكائن اللغوي الذي أصبح يتلون بأشكال إجتماعية وبشرية بالقدر الذي تختلف فيه الشعوب في ألوانها، وأشكالها، ومناخها، ومساكنها، وصنائعها، وقد نلاحظ ذاك الاختلاف بين تعريف بن جني وإبراهيم السيد حيث إعتبر الأول اللغة مجموعة أصوات والثاني إعتبرها رموزا تؤدي إنفعالات.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الحقيقة أن هناك نوع من العبث في تعريف اللغة عند بعض العلماء، والذين لم يدركوا أنهم يسيجون في تعريفاتهم قيمة وحجم اللغة، إنهم ببساطة يضيقون مساحة التعامل اللغوي، ويمكن أن تقول عن بن جني أنه تعامل مع اللغة بمنطق طبيعي أي انه لم يخرجها من مناخها البيئي الكوني فجمع في تعريفه بين كل اللغات المستعملة بما فيها اللغة الإشارية أو الرمزية وهذا دليل على أن مساحة اللغة واسعة وهي لا تقتصر على الإنسان فحسب، بل هناك لغات لا يدركها أولا يعيها الإنسان، لكنها موجودة في الطبيعة، فالعودة باللغة إلى بيئتها الحقيقة وإلى جغرافيتها يعطيها امتداد زماني ومكاني، الذي من خلاله تحقق وظائفها التي وجدت من أجلها .

أما اللغة عند بعض العلماء الدين اعتبروها مجموعة من الرموز وهي تعبر عن انفعالات قد نصطلح عليها اللغة الانفعالية التي تنتهي بانتهاء الحالة التي يكون عليها الإنسان فهي تقوم بوضعية ظرفية وتخدم جهة معينة أو عينية محدودة وزمانها قصيرة. هذه اللغة الانفعالية التي نجدها حاضرة في كل التعريفات المعاصرة، لم تنتبه أنها لا تُعرف اللغة إنما هي تركز على وظائفها الظرفية أي حسب الحاجة وحسب الحالة المزاجية للأفراد أو الجماعات أو حسب ثقافة معينة وهي تقصى شريحة كبيرة من مستعملي اللغة الطبيعة .

إن التعامل مع الإنسان وماله علاقة به من تطور حضاري وتقدم عمراني حجب المفردات والدلالات وحصرها في نماذج يصنعها الإنسان بحيث اصبحت المفردات سجينة لا ترى النور إلا حينما تكون الضرورة ملحة، وإلا نعتت بالغامضة والمتخلفة، هذا الحصار الذي اصبحت تعاني منه المفردات والاصطلاحات سببه الحداثة والتكنولوجيات الحديثة، وفي هذه المحطة سنعيش صداما من نوع خاص هو:

"الصدام الفكري والصدام اللغوي فان احتمل علماء الحضارة صدام الحضارات ،فإنه من المحتمل أن يكون هناك صدام في الأفكار ،لأن كل حضارة تعيش وفق منظومة معرفية و ايديولوجية تميزها عن الحضارة الأخرى.

ولكل حضارة لغتها وقاموسها اللغوي الذي يتطور بتطورها فاحتياجاتها المادية يستحيل أن لا تؤسَس من خلال الفكر الذي يوظف كمًا مفرداتيا واصطلاحي يتوافق، مع متطلبات التطور .

وإذا عدنا إلى المعجم الاصطلاحي في الحضارة العربية الإسلامية، فإننا سنقف عند كرونولوجيا اصطلاحية توافقت أو لنقل تأقلمت مع التطور الاجتماعي لكل مرحلة. والاساس في ذلك أن الفكر أو المعرفة والعلم كذلك تطور في هذه المراحل.

فمن المصطلح الموحش في العصر الجاهلي كقول:

ولي دونكم أهلون سيد

عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيئل[7].

إلى أن نصل إلى عصر يقول فيه الشاعر أو الأديب

" المعاني مطرحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي إنما الشأن في إقامة الوزن وتخيير اللغة" [8].

الزمن الذي نتحدث عنه حول النظم من الإتباع وإلى الانتقاء وهذا لدليل على تطور المجتمع الذي يستعمل المفردات والدلالات، حتما أنه تجاوز مرحلة التصور منتقلا إلى مرحلة التركيب وعمق الصورة، المفردة، واللفظ، والمصطلح يتسامى سمو الحالة الاجتماعية والمكانة الحضارية التي وصل إليها الوعي الفكري والثقافي، حين تخلص من كل العقد وبات الخيال الإبداعي طليقا يعبث بالتصوير الفني ،وبهذه الطريقة عجز كثيرون أن يتسلقوا تلك المقامات الإبداعية كقولهم

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

اسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهم الخلق جرها ويختصم

وإذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تضنن أن الليث يبتسم

إلى أن يقول.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صحيت في الفلوات الوحش منفرد

حتى تعجب مني القور والأكم

هذه اللوحة الفنية تصور نفس واعية ناطقة مصورة لواقع اجتماعي راقي وإلا لما قالت

إن كان يجمعنا حب

فليت أنا بقدر الحب لغرته نقتسم

إلى قول

يا أعدل الناس إلا في معاملتي

فيك الخصام وانت الخصم والحكم

وغيره من أخيار الشعر كثيرة، ناهيك عن العلوم الأخرى كالطب والصيدلة والفلسفة أو علوم الفلك التي اختارت مفرداتها من عمق البيئة التي كانت تعيش فيها.

ونحن حينما نوظف مصطلح البيئة إننا حتما نقصد المكان والزمان والمجتمع والثقافة لأن إيماننا بكل مفردة أو لفظة خلقت لتؤدي وظيفة أنية في زمان ومكان معين ويستحيل أن تعبر هذه الاصطلاحات خارج زمانها لأن الأفراد سيحاكمونها بالإعدام في استغرابهم لها.

يمكننا القول أن كل جيل له معجمه اللغوي الخاص الذي يعكس في الآن نفسه درجة الوعي والمستوى الثقافي ،لكل جيل هذا ما يحيلنا إلى ذاك الصدام الذي شهدته ولا تزال تعيشه الساحة الفكرية العربية التي تِحمل اللغة العربية كامل المسؤولية في عجزها عن صنع واقع تكنولوجي متطور ،وإذا عدنا إلى عصر النهضة فإننا نقف عند تلك الصيحات المنتشرة في مصر ولبنان مناديه بأدلجة اللغة العربية أو تبني العامية. والأخطر هو تعريب المصطلحات الغربية (لأجل التقدم) وباتت اللغة هي الوحيدة السبب في التخلف!

واتهمت بأنها لم تعد تقوم بوظيفتها الحضارية التطورية، إنها لم توسع أفق اصطلاحاتها ولم تنفتح على العوالم المتقدمة وكثرت الواوات، والآهات، والأنات، التي أوصلتنا إلى التساؤل ما سبب هذا الرفض.

"يعاني متعلموا هذه اللغة من الإحاطة بقواعدها الصرفية النحوية والإملائية...عجز من المفردات لا يسمح بمواكبة التطور العلمي الحديث الأمر الذي يثير مشكلة المصطلحات الحديثة في مختلف ميادين الأدب والعلم والفن" وعلى سبيل الذكر في سنة 1986 بملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر صرح الدكتور محمد أركون بقصور اللغة العربية وضيق مساحة استعمالاتها الدلالية ،بالمقابل اشار إلى ثراء اللغة الفرنسية واستشهد قائلا بمثال : هو ميت التي تعنى "أسطورة "(المعرفة) و"ميتوس" la légende وتعني الخرافة، على أساس أنه في اللغة العربية لا يوجد معادل لكلمة ميت التي ترجمت في مصطلحين، وهذا لا يعكس الدلالة الحقيقة لهذه الكلمة لأن الاسطورة يستحيل أن تكون معرفية، لطغيان الجانب الخيالي الذي يستحيل أن يستغني عنه في الاسطورة، وقد قوبل هذا الرأي بالرفض.

كذلك هناك طائفة من المفكرين الذين أرادوا تبني العامية أو اللهجات لأجل النهوض بالواقع اللغوي العربي.

يقول سلامة موسى: "وليست أحمل على اللغة الفصحى إلا لسببين: أولهما صعوبة تعلمها وثانيها عجزها عن تأدية أغراضها الأدبية والعلمية... ونحن جديرون بأن نبحث عن لغة أخرى نؤدي بها أغراضنا"[(11)].

وهناك من تحدث بلسان الأمة العربية واعتبر نفسه وصيًا عليها، وخائفا على اللغة العربية إن لم تجد بدائلا: "لكن ابناء البلاد العربية يدركون أنه إذا لم تماش اللغة العربية ارتقاء الفكر العلمي في الغرب أصبحت بعد زمن لا تكفي حاجات أبنائها الفكرية... فإذن لا بد من خطوة أولى تتخذ في السبيل القويم"[(12)].

من بين الاقتراحات التي تبصر إليها مفكري ألنهضة " أن تدخل الأساليب والمفردات الأجنبية إلى اللغة العربية"[(13)]. إننا أمام تيار كلونيالي جديد، والكلونيالية التدميرية لم تكتفي بسلب الأرض ونهب الخيرات وتشويه صورة العربي المسلم فإن الكولونيالية النهضوية تحاول جادة وفق مخطط إستراتيجي لتعتيم الأنسجة القيمة داخل الهويات العربية الإسلامية.

وإنه لتخطيط لجأ إليه الاستعمار الفرنسي في الجزائر حين تنبه لخطورة اللغة العربية على تواجده، فراح يدفع بالفرنسية دفعا حتى تلقى رواجا وإقبالا من طرف الطبقات الشعبية ،وجعل التعامل باللغة الفرنسية فرض على كل المؤسسات بما فيها التعليمية، كما أنه عمد إلى استبدال اللغة العربية الفصيحة بالعامية وشجع اللهجات المحلية والمعتقدات وبعض الممارسات التي قضى عليها الفتح الإسلامي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والكلونيالية بهذه الفلسفة أدركت مدى خطورة اللغة لأنها تعلم من خلال علماء الإستشراق أن العربية هي سر وحكمة الأمة، وبتفكيك اللغة العربية أو إتلافها فإن العرب سيعملون على إيجاد معادلة موضوعية للاصطلاحات الغربية أو سيحاولون كما قال سعيد عقل الذي اعتبرها معضلة "وستعرض لجميع الشعوب التي لا حروف محركة في نظامها التدويني كالشعوب السامية جميعا ويقوم مبدأ الحل ...باختبار الحرف اللاتيني" (14).

أصبح مجال اللغة حسب مفكرى النهضة عبارة عن مفرزة ترمي بها المفردات البالية، والأشكال الكتابية وطرائق النظم .

لم يتساءل العقل العربي عن الاسباب الحقيقة التي عطلت اللغة، إن النهضوية لم تحسن النظر إلى المرأة المقعرة ولم تستطيع التعامل مع هذا الجيل الجليدي الموجود فوق الماء فاعتقدت أنه صغير الحجم، لكن الحقيقة قاعدته تمتد في عمق المحيط .

العنصرية تجرم اللغة.

إن الكلونيالية النهضوية لم تتمكن من ابتكار تلك المصطلحات العربية الموجودة في اللغات الأخرى كالألمانية والإسبانية

الخزانة Alacena

العرضAlurde

وفي أسماء الأماكن ومصطلحات العلوم لم نسمع يوما أن الأسبان أو الألمان أو غيرهم اشتكوا من ضعف وقصور لغتهم وحاولوا استبدالها بلغة أخرى أو التخلي عنها.

إن هذه العنصرية التي ظهرت مع الفكر النهضوي، سببها السياسات، فحين عجزت السياسات العربية أن تحقق توازنها بالرغم من انها تتحدث في مجالسها بمختلف اللغات، فألقت اللوم على اضعف كائن تواصلي (اللغة) وأصبح كل من فتحت عينيه نحو الحداثة أو ما بعد الحداثة أو العولمة أو العلمنة إلا وعاد للتهجم على هذه اللغة ويحملها مسؤولية التأخر وكأنها ليست هي نفس اللغة التي درس بها، وكبر بها، وأصبح يفكر بها ،لأننا وببساطة لا نزال لا نفرق بين الإغواء والإغراء.

ولا نزال لا نفرق بين الانبهار والإعجاب ولا نزال لا نفصل بين العاطفة والعقل.

كل هذه الكيانات تفاعلت داخل هذه المنظومات الفكرية التي تُحمل اللغة العربية أسباب فشلها، وكأن اللغة هي التي تنتج وتبدع، ألم يكن صناديد العرب يجوبون الصحراء قرا وحرا لأجل تعلم النظم، ما بال هؤلاء أشباه المفكرين يسقطون عجزهم على أجدادهم وآبائهم أليس قائل هذا ألبيت :

ليس الفتى من يقول كان أبي

ولكن الفتى من يقول ها أنا ذا.

ألم يعي علماء تكنولوجيا العرب أنه يستحيل إيجاد مصطلحات معادلة ودقيقة لما يصنع في العالم، لأن هؤلاء العلماء العرب لم ينتجوا هذه التكنولوجيات فكل منتوج أخترع في بيئته يأخذ اسم وضيفته، من الثقافة التي خلق في أحضانها، لأن المخترع لا يتجرد من ثقافته ولغته وهويته ووطنيته، إنه محمل بكل الموروثات التي حققت له التفوق والريادة، حتى يثبت مدى إخلاصه لانتمائه الإثني والعرقي أو الوطني، ليصبغ الابتكار بسمة ذات علاقة مع خصوصيته الثقافية.

لذا لم يستطع الدارس العربي أن يفصل بين ما يستهلكه كمادة وبين ثقافة المنتوج . لم يتخلص المستهلك من صورة الانبهار والانبطاح في حجر التكنولوجيات المعاصرة ،لكن هذا انعكس كذلك على تفكير الجنس العربي ووعيهم بثوابتهم وهوياتهم.

ونحن نعلم كل المعادلات اليوم هي من إنتاج الفكر العربي، فالدارس سرعان ما يكتشف أن ماله علاقة بواقعه الاجتماعية هو كله من صنع غيره، فيُنمي في قرارة نفسه شعور بالإحباط والفشل وتعيش الذات حالة من الفوضى والشتات .

الملاحظ أن هناك قوتين تتجاذبان المواطن العربي، قوة يومياته بكل ما تحمله من تناقضات لغوية واجتماعية فكرية، وقوة أصوله (لغة، تراث، دين ..)

فمن استطاع أن يوفق بين القوتين فإنه يكون بتغليب واحدة على أخرى، والأغلبية التي عاشت جدالا قويا، بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها فقدمت المستقبل بوصفة رمزا للتقدم، وسلمت دون جدال بنجاعة وصواب الفكر الغربي، لأنه يمثل أحد خصوصيات الواقع المعيشي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكان من الطبيعي أن ترفض الماضي (التراث) وترفض اللغة والحضارة العربية الإسلامية ويتحول محور إدراكها نحو كل ما هو تقدمي غربي.

نحن لا نتحامل على الغرب ولا نفكر أنه بسط الحياة باختراعاته، ولا ننكر جهوده في التكنولوجيا ،والاختراعات، ولكن الغرب لم يتنكر هو نفسه للغته أو لماضيه أو لتراثه، وهناك من مفكريه من يعترف بإسهامات الحضارة العربية في الحضارة الغربية.

ألم يعلم العربي أن كل شيء يتطور وفق المنظومة الإنسانية، أي أن الإنسان هو المعادلة الأساسية في التطور.

ألم يعلم أنه يستحيل الرقي بالمجتمع، ويستحيل الانخراط إلى حضارة لا ينتجها الإنسان بنفسه فهو لا يستطيع أن يحافظ عليها، ولا يستطيع أن يشعر بالراحة النفسية، فسيظل يشعر بالاغتراب، ويعاني من عدم تمكنه من فك رموزها المشفرة ،وسيرفض الحضارة وواقعه الاجتماعي وأنظمته، التي لا تستطيع أن توفر له إنتاج يتوافق مع ذاته، ومع خصوصياته الثقافية، وبأسماء عربية، ألم يقل اليازجي: "أن اللغة مرآة أحوال الأمة وصورة تمدنها ورسم مجتمعها وتمثال أخلاقها وملكاتها وسجل مالها من علوم وصنائع وآداب"[15].

وقول أخر يقول: "تنشأ اللغة من المجتمع وتستقر باستقراره على أسس أهمها الحضارة والدين والسياسة والاقتصاد"[16]

من خلال ما سبق يمكننا القول أن الحملة لرفض اللغة أساسها تعصب عنصري، الهدف منه الوصول لتكسير اللغة المقدسة، لأنه اللغة العربية ارتبطت ارتباطا عضويا بالقرآن، وحتى الفقهاء وعلماء اللغة العرب، والفلاسفة، حين يتعاملون مع اللغة العربية يرفعون من شأنها إلى مرتبة التقديس، وأهل النهضة استدرجتهم الكولونيالية لتنقص بالتدريج هذه القداسة، فإذا استبدلت العربية الفصحى بالعامية وبالخط اللاتيني أو الأجنبي، أليس هذا إنجاز عظيم للعلمانية التي تحاول فصل العرب عن دينهم، وفصل العرب عن هويتهم ،فاللغة كما قالت خليفاني حياة أو كما قال اليازجي هي صورة حضارية ودينية واقتصادية واجتماعية فمن خلالها تكسر الهوية أو يكسر الفرد وتعم الهمجية بين ألسنة لا تعرف بأي لغة تتخاطب ولا بأي لغة تبدع ولا بأي لغة يمكن أن تتصل ولا بأي لغة يمكن أن تتعبد.

إننا حتما سنعود إلى عصور الهمجية، لكنها همجية فاقدة لكثير من الخصال العربية وفاقدة لهويتها الاجتماعية ولخصوصياتها الثقافية "فلا تزال الهموم والتحديات العربية مشتركة مؤتلفة متزايدة تتجلى أثارها سياسيا واجتماعيا وثقافيا بما ينعكس على اشكال الحكم التي لم تتحرر من التبعية وأشكال الفكر التي تتزايد غوصا في الرمال المتحركة للإتباع والتقليد، للثقافية التي لا تخلو من طبائع الاستبداد، فضلا عن الأشكال المتزايدة للتطرف الديني" [17].

يصف لنا صاحب مقال الحوار بين الحضارات والخصوصيات الثقافية

مشاهد من هذه الهمجية قائلا:

وماذا فعلت الدول العربية والإسلامية للحفاظ على خصوصياتها الثقافية وأولها اللغة العربية لغة القرآن الكريم التي اصبحت يتيمة في ديارها وأصبح من يجيدها عملة نادرة الوجود لأنها (ممنوعة من الصرف) فلم يعد تدريس اللغة العربية وعلومها يحظى باهتمام العرب والمسلمين الذين تكالبوا على تعليم أولادهم اللغات الأجنبية وأهملوا تدريس اللغة العربية... إننا نشاهد للأسف الشديد أولادنا يتخلون رويدا رويدا عن هويتهم الثقافية العربية والإسلامية عن جهل ودون إدراك أو دراية بخطورة ما يفعلون في تكالبهم على تعلم اللغة الإنجليزية وارتداء الجينز والكاشمير الأمريكي وأكل الهونبورجرز وشرب الكوكاكولا"[18].

أمام هذا التحول الجارف لا بد ان نتحرك نحو الإثنيات لأنها الوحيدة الكفيلة بالمحافظة على اللغة ،وإذا حافظ العربي على لغته العربية فإنه يحافظ على دينه وهويته .

فالهوية: "تترسخ برموز لغوية والأفراد حين يظهرون هوياتهم ،إنما ينجذبون إلى المعطيات الثقافية الموجودة في الشبكة الاجتماعية المباشرة لهم ، وتلك الموجودة في المجتمع ككل" [19]. فكلما كان هناك إشعاع فكري ينبعث من صلب الحياة البيئية، كلما نمت مجموع القيم الإنسانية. التي تؤثر على كل المجالات الاجتماعية وبالخصوص اللغة التي لا نعتبرها في هذه المحطة مجرد أداة إنما هي صناعة كما وصفها بن خلدون "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارات عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب"[20].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا حاولنا تقديم خريطة جيوإثنية فلا بد أن نعود إلى تاريخ اللغة العربية التي انحدرت من اللغات السامية أو الآرامية ثم نزح الساميون إلى " جزيرة العرب فتنوعت لغتهم تنوعا يناسب ما يحيط بهم من الأحوال أو يجاورهم من الأمم ... وتشعبت هذه اللغة في إثناء ذلك إلى فروع يختلف بعضها عن بعض باختلاف الأصقاع وهي لغات الحجاز واليمن والحبشة" (21).

وقد رجح العلماء أن لغة أهل الحجاز والتي انحصرت في قبائل قريش هي افصح الألسن العربية .

كما يقول العلامة: "ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى اسد وبنى تيم"(22). فالقبائل حافظت على اللغة العربية زمنا طويلا ولم تتأثر بالحضارات المجاورة كالفرس والرومان، بل كانت تعتبر اللغة هي ملكية كبقية الملكيات، عرض وشرف لابد من الحفاظ عليه ،وهذه النزعة التملكية لا تجدها إلا في الثقافة الإثنية التي تعرف جيدا أن اللغة خصوصية ثقافية ،ودون أن نعود إلى الزمن الغابر فإن المجتمعات المعاصرة والجزائر على الخصوص توجد بها مجموعة من القبائل (البربر) كالشاوية وزواوة والتوارق والزناتيين) كل هؤلاء البربر لا يزالون يتخاطبون بلغتهم ويعلمونها لأولادهم، وهم بهذه الطريقة يحافظون على بقائهم العرقي والنوعي.

أما قبائل زناتة التي انخرطت في المدينة وضاع تراثها الثقافي بين المدن والمد اشر ولم تكن لهم سياسة ثقافية في المحافظة على لغتهم لم يبقى منها سوى الاسم وحتى الإثنية الزناتية لم يعد لها حضور متميز في الخريطة الإثينة اللغوية، عكس القبائل الأخرى التي تشجع أفراد الإثنية على استعمال وتعلم لغة القبيلة، وهي منذ زمن ورغم الحروب والسياسات التي حاولت القضاء عليهم والاستعمار. إلا أنهم ليزالون يتمسكون بلسانهم الذي يتميز، ويميزهم عن بقية المجتمعات.

هذا يعني أن اللغة في أحضان الأثينية هي ثابة لا يمكن المساس فيها، لأنها التراث الهوياتي الذي يحافظ على هذا النوع البشري ،بل كل فرد ينتمي إلى هذه الإثنية نصيبه من الميراث هو اللغة وليس المال،اللغة التي ستضمن له الاستمرار والبقاء لأجيال لاحقة، وستضمن له التحدى وستضمن له إبراز ثقافته والتميُّز بها فالإثنية عند العرب هي التي صنعت اللغة المدنية .

إن المرأة العربية لا تزال ترضع طفلها بحليب أدق مكوناته المجهرية اللغة العربية، اللفظ، المفردة ،والمعنى ،والبلاغة ،وقدسية اللغة العربية.

كل هذه الخصوصيات تشكل لنا مشهدا للحفاظ على اللغة العربية في زمن تراجع فيه الإنسان العربي ولم يتمكن من إيجاد معادلة تمكنه من تحقيق ذاته في الساحة العالمية.

الهوامش:

1. إبراهيم السيد (صبري) علم اللغة الاجتماعي مفهومه وقضاياه دار المعرفة الجامعية الإسكندرية سنة 1998 ص 2.
2. بدر أحمد اصول البحث الاجتماعي ومناهجه وكالة النشر الكويت الطبعة 8 سنة 1986 ص 37.
3. إبن جني الخصائص الجزء 1 طبعة بيروت ص 40.
4. محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع دار المعرفة الإسكندرية سنة 1989 ص 265
5. مجلة المنطلق ملف اللغة العربية وتحديات العصر العدد الثامن والسبعون والتسع والسبعون سنة 1991 ص 8.
6. نفس المرجع ص 3.
7. ديوان الشنفرة
8. أبو عثمان الجاحظ البيان والتبيين
9. ديوان المتنبي
10. عبد المجيد زراقط اللغة العربية الفصحى والدعوة إلى اصطناع العامية ولغة بديلة "المنطلق اللغة العربية وتحديات العصر العدد 78 و79 سنة 1991 ص 78.
11. نفس المرجع ص 68
12. خليفاتي حياة نحو ترقية اللغة العربية على ضوء تدريس علم المصطلح مجلة الممارسات اللغوية العدد التجريبي سنة 2010 ص 196.
13. مجلة المنطق نفس المرجع 67
14. نفس المرجع 68
15. نفس المرجع ص 78.
16. الممارسات اللغوية مرجع سابق ص 183.
17. جابر عصفور الهوية الثقافية والنقد الأدبي دار الشروق سنة 2010 ص 122
18. الحوار بين الحضارات والخصوصيات الثقافية ص 126
19. هارلمبس وهولبورن سوشيولوجيا الثقافية والهوية دار ديوان الطبعة الأولى سنة 2010 ص 15

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

20. عبد الرحمان بن خلدون المقدمة دار مكتبة الهلال سنة 1991 ص 344
21. جرجي زيدان اللغة العربية كائن حي دار الجبل الطبعة الثانية سنة 1988 ص 12.
22. ابن خلدون نفس المصدر ص 344.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com